***Dirasat*: Human and Social Sciences, Volume 52, No. 5, 2025, 7150**

Deanship of Scientific Research

The Problem of Argumentation in the Questions of Narration Al Sahil and Al Shahij "as a Model"

Khalaf Motlaq Alazmi*, Ahmad Hamad Almutairi

Department of Arabic Language and Literature, College of Basic Education, The Public Authority for Applied Education and Training, Kuwait

Received: 12/3/2024
Revised: 7/5/2024
Accepted: 25/6/2024
Published online: 1/5/2025

* *Corresponding author:*
Khalaf_alazmi@yahoo.com

Citation: Alazmi, K. M., & Almutairi, Almutairi, A. H. (2025). The Problem of Argumentation in the Questions of Narration Al Sahil and Al Shahij "as a Model". *Dirasat: Human and Social Sciences*, *52*(5), 7150.
https://doi.org/10.35516/hum.v52i5.7150

© 2025 DSR Publishers/ The University of Jordan.

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) license https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

Abstract

Objectives: This research aims to study the theme of questions that are pervasive in the narrative of Al-Sahil and Al-Shahj, considering them as interconnected units in the construction of the narrative and its narrative style.

Methods: The study required following an analytical descriptive approach based on tracking the instances of questions and exploring their contents. The narrator presented these questions from the beginning of the narrative in the initial dialogue among a group of animals until the emergence of the real narrator at the conclusion of the narrative.

Results: The narrative questions involved six characters who shifted roles and topics, led by the hero "Al-Shahj" in diverse discussions. The real narrator's intellectual and philosophical depth was apparent throughout, as Abu Al-Ala navigated debates, paradoxes, humor, and various narrative and poetic styles while addressing heritage.

Conclusions: The conclusion of the research focused on exploring questions posed by various characters, which revealed aspects of the narrator's world through conflicts and debates, highlighting societal class distinctions. It emphasized the narrator's interaction with multiple cultural levels and the use of main characters to present diverse ideas, contrasting with secondary characters who offered moments of calm and relief. The questions acted as a neutral narrator, suggesting the presence of the real narrator and Abu Al-Ala's control over the narrative directed at the prince. The study's extensive literary references encourage further independent exploration due to their significant and enriching content.

Keywords: Questions, Al Sahil, Al Shahij, Abu Al Ala, narration.

إشكال الجدل في التساؤلات السردية الصاهل والشاحج «نموذجًا»

خلف مطلق العازمي*، أحمد حمد المطيري

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية التربية الأساسية، الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب، الكويت.

ملخّص

الأهداف: يهدف هذا البحث إلى دراسة موضوع التساؤلات التي لا تكاد تخلو منها رسالة الصاهل والشاحج، باعتبارها وحدة مترابطة مع بعضها في صناعة الرسالة وطريقة سردها.

المنهج: تطلبت الدراسة السير وفق المنهج الوصفي التحليلي القائم على تتبع شواهد التساؤلات واستقراء ما فيها، والتي عرض لها السارد منذ بدء الرسالة في أول حوار عند مجموعة من الحيوانات حتى ظهور السارد الحقيقي في ختام الرسالة.

النتائج: امتدت التساؤلات السردية في الرسالة لدى ست شخصيات تبادلت الأدوار بينها في طريقة العرض والموضوع، ويجمعهم بطل «الشاحج» في شتى نقاشاتهم. وكان حضور السارد الحقيقي باديًا في كل الشخصيات والذي تمثّل بالكم المعرفي وطبيعة أبي العلاء الفلسفية التي مثّلت قدرته في الجدال وصنع المفارقات والفكاهة والتعامل مع الموروث باختلاف أنماطه وشعرية سرده.

الخلاصة: قام البحث على التساؤلات التي طرحتها الشخصيات المختلفة في مشاربها وعقلياتها، وكشفت هذه التساؤلات شيئًا من عالم السارد عبْرَ التنازع النصي في التساؤلات وجدالاتها التي عبّرتْ عن التمييز الطبقي في المجتمع. وأسست لنا مفارقة التساؤلات أن هناك أكثر من مستوى ثقافي يتعامل معه السارد، ولجأ السارد إلى شخصيات رئيسة كانت تمثل مجموعة من الأفكار، مقابل شخصيات ثانوية كانت لها غاية الاستراحة في هدوئها ودفع السَّأم. وقامت التساؤلات بدور السارد المحايد الذي وَشَى بوجود السارد الحقيقي وأنَّ أبا العلاء هو المتحكِّم طول الرسالة أمام الأمير الذي وُجِّهتْ له. ولعلَّ مجموعة الإشارات من الموروث الأدبي تدعو حثيثًا إلى درسها في أبحاثٍ أخرى مستقلة، لما فيها من قيمة جوهرية وإثراء.

الكلمات الدالة: التساؤلات، الصاهل، الشاحج، أبو العلاء، السرد.

مقدمة

يقوم هذا البحث على دراسة رسالة الصاهل والشاحج لأبي العلاء المعري، بوصفها فنًّا قصصيًّا يقوم على لسان الحيوان. وهي رسالة وجهها أبو العلاء إلى السيد عزيز الدولة والي حلب من قِبَل الحاكم بأمر الله الفاطمي. يعرض فيها أبو العلاء قصةً تدور على لسان الحيوان يستشفع بها عند الأمير لأبناء أخيه الذين فَرَضتْ الدولةُ على أرض لهم قاحلة ضريبةً لا قِبَلَ لهم عليها ولا مقدرة. وهي قصة تعددت شخصياتها وجمعتها أحداث وزمن ومكان وحبكة وعقد وحلول، في وقت كانت تسجّل فيه القصة تاريخًا عصيبًا لحلب تناقل فيه الناس عزم أمير الروم غزو المسلمين وما يترتب على ذلك من مجازر وهتكٍ للأعراض وتخريب، فضلًا عن الفساد والدسائس التي كانت تحيط بالحضرة العالية. فالرسالة تقدم عرضًا لأحوال المجتمع وأوضاعه وطبقاته وحالة أفراده ومعاناتهم وتصف بيئة العصر وأحداثه. وقد عمدت هذه الدراسة إلى الكشف عن جزء جوهري مهم في سرد الرسالة الكائن في تساؤلاتها عند ست شخصيات حيوانية مثلّت محور الرواية، أربعٌ منها رئيسية واثنتان ثانوية، فضلًا عن شخصية السارد أبي العلاء المعري التي تستهل الرسالة ثم ينسحب بلطف ليعود في آخرها للختام. وهي دراسة احتفت بالجانب التطبيقي أكثر من التنظير، وركّزتُ فيها على الدرس أكثر من الإحالات، وتجنّبْتُ فيها التوسع بشرح الأدبيات المنشورة. أما بالنسبة إلى الدراسات السابقة التي تناولت «رسالة الصاهل والشاحج» فهي قليلة معدودة، ولم تلتفت إلى التساؤلات السردية في الرسالة؛ على سبيل المثال نجد دراسة الباحثين: حكمت عيسى، وفاطمة محمد علي، ومصطفى عبد الرحمن نمر «الأساليب السردية في رسالة الصاهل والشاحج»، تتناول الأساليب السرديّة التي اعتمد عليها السارد في رسالة الصاهل والشاحج، وهي: الأسلوب البانورامي، الأسلوب المشهدي، والأسلوب الإخباري. ويرتبط كلٌّ منها بموقعه بالنسبة إلى الشخصية ومدى رؤيته للأحداث، وقد توصلت الدراسة إلى أن الأسلوبين البانورامي والإخباري يتدخلان مع (الرؤية من الخلف)، ويقومان على تقديم الأحداث عن بُعد، في حين يتداخل الأسلوب المشهدي مع (الرؤية مع)، ويعرض الأحداث عرضاً مسرحياً (عيسى، علي، نمر، 2020: 78). أما دراسة أمينة الشريف سالم عقيلة «بناء الشخصية في رسالة الصاهل والشاحج لأبي العلاء المعري»، فقد تناولت مستوى الخطاب السردي في رسالة الصاهل والشاحج بطريقة تجمع حداثة المنهج وخصوصية الرسالة، وتوصلت الدراسة إلى نتائج عدّة وهي : 1- ما جاء من وصف سردي للمكان والشخصيات بصورة موجزة قائمٌ على الانتقاء، 2- لم تقم القصة على تعدد الشخصيات كما جاء في (كليلة ودمنة)، 3- العالم الحكائي في الرسالة خيالي يستحيل وجود مثله في الواقع، 4- استطاع المعري تشخيص الشخصيات الحيوانية في رسالته حتى إن المتلقي لا يشعر بأنه يعايش عالما حيوانيًا بكافة أجزائه، ٥- اختفاء النوادر والملح من الحكايات، ٦- ندرة قصص المغامرات والأساطير (عقيلة، 2020: 51). ويبقى في بعض نتائجها نظر رغم قيمتها العلمية، فضلًا عن أن دراستها لم تتناول التساؤلات السردية التي طرحتها الشخصيات المختلفة، ولم تكشف عن المستوى الثقافي لها.

وعليه فإن الباحث سعى إلى تقسيم أجزاء البحث على النحو التالي:

- تمهيد.
- التنازع النصّي بين الصاهل والشاحج وتساؤلات الحوار.
- مفارقات التساؤل لدى أبي أيوب الجمل.
- الفاختة والاستراحة الأولى.
- الضبعة والاستراحة الثانية.
- الثعلب ودور السارد المحايد.
- السارد الحقيقي وختام التساؤلات.
- الخاتمة: وتتضمن نتائج الدراسة.

تمهـيد:

على الرغم من الحركة السردية على امتداد رسالة الصاهل والشاحج من فصل لآخر ومن صوت شخصية لأخرى بدءًا من بطل القصة الشاحج نفسه ومرورًا بالصاهل وأبي أيوب الجمل والفاختة وأم عامر الضبعة حتى ثعالة، فإن الرسالة لا تكاد تخلو من صيغ الاستفهام والتساؤل التي تحمل في معانيها وصيغها دلالات تجعل الشخصيات في مقاربات وحركة متصلة تسعى بالمتلقي جاهدًا خلفها مع الشخصية ليدرك هذا التتابع والحركة المستمرة على طول الأحداث. وخلال هذه الرحلة عبر أقسام الرواية ومواقفها المتتالية تتفكك مطويات من التعقيدات النصّية المتمايزة في ملابساتها لتكثر فيها المعاني وتتبعثر، ولتصور للمتلقي المعاني العدة التي يطمح فكَّ ألغازها، كما في التورية والألغاز التي نحا فيها الشاحج منحى ابن دريد في كتابه «الملاحن» وابن فارس في كتابه «فُتْيا فقيهِ العرب» (المعري، 1984).

ومع أصوات هذه الشخصيات وما نشاهده من وقائع تقربنا من زمن ومكان كان يعيشه أبو العلاء ويمثله الشاحج في الرسالة، نكون قد اكتشفنا ملامح العالم الذي تقتنصه هذه الرسالة بين ثنايا التاريخ وإرهاصاته ومخيلتنا التي تتخلّق في إطار الهاجس المشترك تحت لفح التساؤلات التي تنهض

بالسرد كله في رحاب الحوافز الفضولية للمتلقي الذي يبحث عن تفسيرات الربط التي تتباين نصيًّا باختلاف زوايا رؤى الشخصية الرئيسة وطرائق السرد التي تُبنى على حافز العثور على إجابات تستعصي على القارئ في بادئ الأمر، غير أن الإشارات التي يصنعها السارد وعناوين الأسماء التي ترد تجعل المتلقي يقتنص المعنى الذي غاب عنه في أول الأمر. ويكون السارد المساهم في إنتاج الخطاب على نحو مخصوص، كما أنه يعمل على تفكيك الخطاب، وخاصةً ما يتعلق بكشف العلاقات القائمة بين عناصر خطابٍ معين يبدو لأول وهلة أن لا جامع بينهما، وبتعبير آخر يقوم صانع التساؤلات الحقيقي بوظيفة مزدوجة بين شخصيتين، يقوم الطرف الأول بعقد الخطاب والآخر يحله أو يجادله، وفي كلا الحالتين تبقى الآلة الذهنية للسارد هي المبدأ والمنتهى والجامع للأطراف (خطابي، 2006).

وعبر أقسام الرسالة يتأمل المتلقي في مخيلته جوانب مأهولة من تصوراته اليقينية عن هذه الحياة وعن نفسه في جوانب قد قاربها من قبل تتباين في تصوراته وتكويناتها في عالم الخيال، يدفعه في ذلك التنقلات الواضحة في الأحداث التي تعيشها الشخصيات وأصواتهم التي تسوق القارئ للعثور على تفسيرات استمع لها خياليًا عبر القراءة.

تتقاطع عوالم شخصيات الرسالة اللاتي قدمت من أماكن شتى وأسباب متعددة في موضع الملتقى عند بركة الماء التي وردوا عليها جميعًا في أوقات مختلفة، تتباين فيها غاياتهم، والشاحج كأنه يستوطن مكان الورود ليبحث عن الأحداث فيصنعها في تساؤلات وجدالات مع الشخصيات المتنوعة. فالصاهل يَقْدم من المصر ويلتقي الشاحج ويدور ما يدور بينهما ومثل ذلك يدور حوار آخر مع الجمل ثم الثعلب الذي يأتي بأخبار حلب وهكذا، لكل شخصية دور تؤديه. وكلهم متسائلون وباحثون عن يقينهم، ينساقون وراء دوافع عدة وطرائق تجعلهم ينظرون للحياة من مسارات تخصهم كلٌّ على حدة، وكأنما زوايا البركة التي التقوا عليها لها زوايا متعددة يقف كل واحدٍ منهم على ضفة، تختلف رؤياه حسب مكان وقوفه فأحدهم يقف في زاوية الشرق لتشرق على مرمى بصره، وآخر يخالفها فيقف على زاوية الغرب فيضيق من شعاع الشمس، وأحدهم كالشمالي الغربي يميل للغربي والآخر كالشرقي الجنوبي يميل للشرقي. هذه الاختلافات في أماكن الرؤى هي نفسها الاختلاف في وجهات الرأي التي كانت تتجادل عليها شخصيات الرواية طوال الرسالة الممتدة منذ ورود الصاهل للبركة على الشاحج حتى أخبار الثعلب التي جلبها للشاحج.

التنازع النصّي بين الصاهل والشاحج وتساؤلات الحوار:

ولعلّ المحطة الأولى في سير الرسالة قد اندفعت بمجموعة من التساؤلات الحوارية بين بطل الرواية الشاحج والصاهل صاحب المشهد الأول اللذين يتنازعان التساؤل نصيًّا في لقائهما عند البركة، «من أين طرأ الكريم؟ فيقول الصاهل: ومن أين علمت بالكرم؟ ومن دون عينك حجابٌ قد شدّ؟» (المعري، 1984، ص92-93). وهنا يحفّز أبو العلاء داخل القارئ بركانًا من التساؤلات حول معالم هذه البداية ومعالم هذه القصة، إذ تمثل بداية تكوين شخوص الحكاية، والتي ستكون على منوالها بقية الشخصيات بما يُهيّأ في ذهن القارئ من تصورات إلا إنْ خالفها السارد بما يُرضي طموحه من صدمات تشويقية تكسّر ذهنية الظنون لدى المتلقي وتخالف توقعاته. ويدفع هذا الاستهلال الاستفهامي للصاهل والشاحج النفس للبحث في الألغاز والحجاج في وصف الشاحج للصاهل بالكريم متسائلًا علامَ هذا المدح لم يُطرب الصاهل حتى اندفع بما يشبه الاستهزاء «فكل الأساليب التي تؤدي إلى إقناع المتلقي بفحوى الخطاب سواء خاطبت العقل أو أثارت العاطفة جاز لنا أن نتحدث عن الحجاج بالسخرية» (الحسني، 2009، ص164).

ويتكوَّن بعد هذه اللحظة تساؤلات تُطرح حول ذوات هذه الشخصيات عن مبتغاها ومرماها، لتعبّر عن إعجاب داخلي في نفس الشاحج تجاه الصاهل حين أجابه: «عرفت كرمك في وطنك وصوتك» (المعري، 1984، ص93). وهو تقرُّب لفظي وملاطفة يعمد الشاحج إلى ما بعدها من التقرُّب إلى أصل الخيل طمعًا في أصالتها التي يودّ الانتساب لها. ويدوم طنين السؤال للبحث عن هذه الماهية قارعًا فهم الشاحج عن الأجناس وطبيعة الذوات في سياق لا يحسن موضعه هنا كون الثناء الذي بدأ به الشاحج يلزم الصاهل قبوله بإحسان أو الرد بما يليق به ويجاريه. لكنّ الإجابة تُنبئ عن تعامل الصاهل في فهم الانتماء للشاحج له بالسخط، «فيقول الصاهل: إنك لعالم بالعِراب، فمن أين لك ذلك والأيام لك شاجنة، ونُوَبُها عندك راجنة؟» (المعري، 1984، ص93). ومرام الصاهل نفي التقرب بالنسب منذ مطلع الحديث القائم على التساؤلات.

ويبدو إصرار الشاحج مطمورًا بداخله، بحثًا عن هذه الصلة ومُظهرًا غير المبالاة لسوء أدب ردّ الصاهل، ولذا تتحول الأسئلة وتتبدل إلى أخرى يستمر فيها السؤال رغم طريقة السرد المبنية على الإفراط بالإشارات التاريخية والدينية والأدبية التي انتهجها أبو العلاء مسلكًا له طوال الرسالة دون كلل، وتتوالى الأسئلة والإجابات، «فيقول الشاحج: فرضٌ على المُنتسب عِرفان الخال... فأخبرني: من أين مبدأ سفرك؟ فيقول الصاهل: من مصر التي قال فيها فرعون ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (سورة الزخرف، آية 51)؟ فيقول الشاحج: أُكرمتَ أُكرمتَ... فإلى أين المَجْرَدُ؟ فيقول الصاهل: إلى حضرة مُوَاسٍ آسٍ، قد بسط آمالَ الناس... فيقول الشاحج: صدق زاعمٌ فيما زعم... وهذا الأمير» (المعري، 1984، ص95). والسارد رغم إفراطه بالإشارات التي ذُكرت وهو يعمدها لغاية فإنه في هذه البداية يطمرنا بمجموعة من التساؤلات الحائمة حول الشخصية، مشوبة بنبرة تشبه المراجعة. وبها يكون المقصد الذي نزح إليه السارد في الكشف عن كُنه الشاحج ومراده، فالغاية الأولى مطلبٌ عزَّ عليه وَجَدَ في الصاهل مبتغاه لأدائه، والآخر مسعًى ودّ إليه يسوق فيه الصاهلَ إلى مواجهة الحقيقة التي طالما هرب من مواجهتها ولذا يقول: «وقد عزمت يا خالي، أن أستودعَكَ رسالةً

إلى حضرة هذا الأمير، لِتُذَكِّر بي ولاة العدل» (المعري، 1984، ص96).

فهو يُصرّ على الخؤولة، وربما بات على الشاحج لزامًا أن ينتزع لنفسه هذه الخؤولة وإن تحولت هذه العلاقة إلى جحيم بارد، أو كأنّ السارد يحاكم ذات الشاحج بنبرة أقل مصارحة مبدؤها التكرار في ذكر لفظة «الخال»، التي ما زال الشاحج يتشبث بها للدفاع عن نفسه، وهو في كل هذا ينتظر حُكم الصاهل عليه بالإيجاب والقبول أو ربما السلب. ثم تلوح هذه النبرة أكثر مصارحة في تمردّ على الأعراف والمواصفات المعهودة بأدب الحوار والمجاملة إلى ملابسات معقدة تمثل جزءًا من تقاليد راسخة في الزمن ماضيه وحاضره، «فما بالي يا خالي، لا أعرف فيك بشاشة المسألة؟ لا تكن من الذين إذا طُلِبَتْ منهم الحاجة سكتوا، وإذا سُئِلوا في الشيء المعرِض نكَتوا... وأعِنْ حاطبكَ بالشَّبَم يُعظِمْ نارك، وانصر المظلوم... والخال أثبت نسبًا من العمّ... واصطنعني بيدٍ، جازيتك بثناءٍ مُخلد» (المعري، 1984، ص105-106). ومجال استفسار الشاحج يدور عمّا كان وعمّا سيكون في زمنه القادم المحتمل في علاقته مع الصاهل، وهل سيلبي سُؤْلَه، ولذا بحث عن المكانة والصلة التي حفظها نسب المصاهرة بين الجنسين حتى صار البغل. وهو يترقب متطلعًا إلى حبل النجاة الذي يمكن أن ينتشله من عوز الحاجة في سُؤلى الأمير.

ومن هنا بدا الشاحج يُشْعِر الصاهل بعاطفة الانتماء، ويتقرّب إليه بحسن الخطاب والتودد بالألفاظ مدعمًا هذه التساؤلات بوقائع سردية في الصلات والأنساب ووصايا النبي- صلى الله عليه وسلم- والأمثال وأخبار الأولين من التراث، يبرزها ويؤيدها ويدعم فيها تساؤلاته (المعري، 1984). وهو بهذا يحرج الصاهل بمعرفة لم يكن يمتلكها من قبل، ليدركه الشاحجُ بأخبارٍ قد فات الصاهل منها علمٌ كثير في حياته القصيرة.

ويحشد الصاهل التساؤلات في جدلٍ لا ينتهي، يلهي فيه القارئ العجل الذي لا ينفذ سؤله ولا ينقضي عجبه. وهو يجمع تساؤلات تلهج بالصّلف والمجاذبة، يعالجها المتلقي عند قراءتها ببعض النشاط العقلي في شبهات تصعب عليه أحيانًا، وتتطلب ثقافة مطلعة بالتراث وأخبار السالفين لمن يقرأها في عصر أبي العلاء لصعوبة الوسيلة، وحتى يومنا هذا فهي تعزّ على قارئها بما تنطوي عليه من أقنعة وجدل وخلاف، تلزمه التمحيص وراءها والنقاش لما تحويه من مقاصد واسعة تطويها اتجاهات متباينة في فهمها، وما تعتريه من تهوين واستهزاء يقصد إليه الصاهل. ويثير الصاهل من الوقائع الزمنية تساؤلات يصلها من عالمه الحالي بماضيها وتجاربها التي ارتبطت بأماكن شتى، بعضها ربما ارتبط بغيابات المجهول غير أن ذكر الخبر وصل إلينا هكذا. ويبقى أن تكون هذه التساؤلات محلّ أرقٍ يجلبه الصاهل من الزمن القديم انتهت إليها مصائر أشخاص أو مخلوقات تمثل رمزيًا بعض أجناس الناس. والشاحج يكابد تداعياتها بأفهامٍ يراها من اختيارات الصاهل بعيدة عن الصواب، ولكنه لا يستطيع إزاءها إلا الدفاع والتغيير جدلًا.

ومن هذا الزمن البعيد الذي مضى وانقضى على شواهد الاختيارات التراثية يعيد الصاهل صياغتها مقرونة بالتساؤل الذي يزري بقدر الشاحج. ويؤكد من خلالها عدم الندم فيما يوجهها له، ويبديها في شكل بذرة تحمل بداخلها معاني الهزيمة التي تلتصق بشخصية الشاحج في وقته الراهن، ماثلةً أمامه من زمنٍ ناءٍ مؤلم إلى زمن معاصر أكثر إيلامًا، اختار منه الصاهل ووظّفه في صياغ قوله: «زعمت أني خالك؟! وأين الآفق من اللئيم ولدته غافق؟ وما بين الشَّربةِ والصَّرْبةِ من سُهمةٍ؟ وما قَرابةُ البيدانة إلى الرَّيْدانة؟ ليست الرَّقْلة عمَّةً للشيخة ولا خالة. ما للجبسِ الهدان وتَنَسُّبا في عبدِ المَدانِ؟!» (المعري، 1984، ص110). والصاهل هنا يخلط بين الغضب والنقاش وتصوغ ألفاظه فكرة الشر المنبعث من اللفظة بطريقة ماكرة، ويدعم فكرته بالغرابة اللغوية والموروث الثقافي العربي. إن الصاهل يستهزئ بالشاحج، فأين الذي بلغ غاية الكرم والفضل ومنتهى المجد إلى الذي ينتسب إلى أخوالٍ من قبيلة طيبة الذكر وأصل آبائه لئام، أو هل يصحّ القياس بين الشراب والطعام في وضع الاستهام عند توزيع الغنائم، وهو قياس لا يصح، إذ إن الصربة نوعٌ من العشب. وهل يصح أن نوازن بين البيدانة وهي الحمار الوحشي وبين الريدانة وهي الشريفة الطاهرة؟ إذن فالمقياس لا يليق. فالسارد يعقد الموازنات على لسان الصاهل في أشكال تظهر التهكم في أقسى صوره.

فانظر كيف أومأ السارد لهذه الشخصية عقد الموازات في شكل أسئلة متلاحقة في انتقال متوازن من حزمة تساؤلات الشاحج الأولى إلى هذه الحزمة من تساؤلات الصاهل، وفيها يتملص من تشبث الشاحج به. فالحجج تدحض الحجج الأخرى وتفندها، والحوار هو المهيع الذي يتأسس عليه الحجاج ويُبنى؛ لأن الحجاج يعني بالضرورة الخلاف ويدور في الممكن والمحتمل، ومتى كانت الحقيقة واحدة لا خلاف عليها غاب الحجاج وحلت البرهنة. والباحث في حوار الحجاج يحدد بشكل أو بآخر بنية الخطاب، وهما بنيتان متناقضتان، هما نصير رأي وداحضٌ له، ويُستدعى رأيٌ ثالث يمثله القارئ المتردد إلى مَنْ يميل. وهذه الآراء الثلاثية في بنائها تشبه شكل المحاكمة القانونية التي تقوم حواراتها على إقناع المتلقي وتغيير المواقف في هذا الصراع (الحسني، 2009).

وهذه المراوحة بين تساؤلات الشخصيتين تميل غالبًا إلى طرفها الأخير كما يحصل الآن في انفضاض الصاهل من خؤولة الشاحج. ويضاعف الصاهل دور التساؤلات إلى معانٍ بعينها تتصل بقدرة الشاحج وعجزه، وتثير شكوكًا ممكنة على شكل ثنائيات تتوزع بين طرفين، «أم عندك ثعالب جُلْهمة كثعالبَ صادفتْ مُرهِمَةً، فوبَرُها بالقَطْرِ بليلٌ، وكلُّها إلى قوتِ العَيْلةِ خليل؟ أم ظننت أن ذئبًا جدَّ سطيح كذئبٍ يهتَبلُ بجدِّ نطيح؟ أم أسدًا وهو أخو كِنانةَ كأسدٍ حمى البُنانة؟ أثعلبة أبو قيس كأُمِّ التَّنْفُلِ حليفِ الكيس؟» (المعري، 1984، ص112). والصاهل في تساؤلاته يقود الشاحج إلى تساؤلات تبتعد بإجاباتها عن سكينة الاطمئنان التي يطاردها الشاحج. ومن موازنات الإرث القديم وأسئلته هذه يعذّب حاضرها واقع الشاحج مستحضرةً غموض الزمن الطويل في معرفة قد تكون غير مملوكة لذهنية الشاحج أو حتى القارئ إلا بالبحث والاطلاع الشديد، لتدرك الشخصية المقصودة بالتساؤلات وهو الشاحج أو حتى المتلقي نفسه أنه قد فاته شيء كثير من ماضيه اللغوي والمعرفي.

ومع زحام التساؤلات الشخصية يواصل الصاهل انتقاله المتوازن نحو تساؤلاتٍ مضاعفة تؤكد الفكرة التي ينتهجها، وتعبّر عن حالات المراوحة بين طرفي النزاع الصاهل والشاحج في المعرفة وعدم المعرفة بين الإبصار والعمى واليقين وعدمه. وبالتأكيد يلوح في هذه التساؤلات أن الطرف الثاني المتمثل بالصاهل هو الأكثر هيمنة في هذه التساؤلات كونه الحَكم والخصم في آنٍ واحد، فضلًا عن تباعد المسافة الفاصلة بينهما من أجل الوصول إلى حالة التوازن التي تتوق لها شخصية الشاحج. فها هو الصاهل يكثف تساؤلات الحقيقة التي ينشدها والغرض الذي يطمح إليه ليكون عدلًا بينهما، فيقول: «أدرع الرود خَلَقًا أو جديدًا، مثل ما نسجه داود حديدًا؟ أَعَيْرٌ في الورقةِ حقير، كعَيرٍ في الهامةِ له توقير؟ ما العنْتَرُ إذا أكثر ترنُّمًا، كعنترَ في قطيعةَ يريد مغنمًا. أذبابُ السيفِ قطع في القِرابِ، كذباب الصيفِ نُعِتَ بالإطراب؟ ما أسامةُ بن زيدٍ أين ذهب، كأُسامةَ في طرفاءَ ذعَرَ وأرهب؟» (المعري، 1984، ص113).

مفارقات التساؤل لدى أبي أيوب الجمل:

وبين لذة الكلام وعمق الإصغاء تنطوي بعض التساؤلات على أبعادٍ تفسيرية لبعض الموروثات اللغوية والمعرفية أو حتى السلوكيات، والمهم أن السارد يتصوَّرُ في عرضه للتساؤلات بين الشخصيات أكثرَ من مستوى ثقافي لدى القارئ. فالعامي يحفل بالظاهر والمعتقد المعلوم من الحادثة التاريخية كما نقلت له، وهناك فئة أخرى من أهل العلم تحيا على الخوض فيما وراء العتبات وما يعتري النصوص من تناقض ورمزية. وفي هذا الجو يختلط الاختيار بين الاضطراب والإيجاب في تعيين الكلمات غالبًا بين الحق الذي لا تنقضي فيه العبارة إلا للمعنى المفرد الأوحد بلا تأويل أو إلى المختلط الصعب في التمييز. وإذا دققنا في قراءة تساؤلات الجمل أبي أيوب وعيائه بالفهاهة فهمَ رسالة الشاحج التي وشّاها بالألغاز والتورية وجدنا أن أبا أيوب يستحمق الشاحج. يقول الجمل: «أزعمتَ أن الريحانتين يجريان مجرى القُرطين هما في الحقيقة أخوان ولكنهما لا يلتقيان؟ وهل فرّقَ بينهما شيءٌ إلا الموتُ؟ ... وزعمتَ أن محمد بن عليّ لم يرَ جعفرًا في داره، فمَنْ الذي نقل ذلك إليك؟ أليسا بالمدينة كانا قاطنين؟ أفتظنهما كانا لا يتزاوران؟ ... وأما قولك إن الزهراء لم ترَ عليًّا في بيتها، فعليك بهلةُ اللهِ، أين كانت تلقاه؟ أفي بيوت الناس أم على ظهور الصُّعُدَات؟ وزعمتَ أنَّ الخَلَّ كان يحضرُ مائدة عليّ بن الحسين فيسأل عن الحلال والحرام. وهل للخِلِّ أَرَبٌ في ذلك؟ ... وما يؤمِنك إذا ادّعيتَ ذلك أن يدَّعيَ مُدَّعٍ للخمر أنها لقيت بعض الأئمةِ فسألتْه عن نفسها فزعم أنها حلال؟ وما تُنكِرُ، إذا قلتَ ذلك، أن يقول قائلٌ: إن نبيذَ التمرِ فَقِيهٌ يُفتِي فيما يَرِدُ من المسائل؟ ... وزعمتَ أن السِّبطينِ كانا يتطهران بالبُسْر ويغتسلان منه. فما الذي تقصدُ بهذا القول؟ ... فإن كنتَ أردتَ ذلك فأيُّ فائدةٍ في كلامك؟» (المعري، 1984، ص235-237).

إن التساؤلات هنا ترتبط ببعدٍ حواري لما ألقاه الشاحج من قبل في الرسالة التي ودَّ للجمل أن يحملها له إلى الأمير وفيها ما فيها من الألغاز والتورية. فهذه المعلومات والسلوكيات والوقائع التي تُعرض في تساؤلات أبي أيوب تحوي بُعدًا تفسيريًّا يُجيبُ عليه الشاحج لاحقًا في حلِّ ألغازه بعد أن أعيت فهمَ أبي أيوب (المعري، 1984). إن المفارقة تكمن في عدم معرفة الشخصية أن تساؤلاتها مبنيةٌ على تلاعب شخصية أخرى بها أو في عدم قدرتها على الحيلولة دون ذلك، إذ تنطوي المفارقة على مظهر يتعارض مع المخبر، وهي كامنةٌ في التقمّص ذاته، بحيث تقوم على عدم الوعي بأن الموقف الحقيقي يختلف تمامًا عمَّا يبدو عليه، وتكون المفارقة أبلغ أثرًا عندما يشارك القارئ الشخصية، وبخاصة عندما لا يكون ضحية (ميوميك، 1982).

وأما هنا، فمع محاولة الجمل استيعاب ما أشار له الشاحج فإن منحى التفسير الذي يسعى إليه أبو أيوب في فهم الألغاز والتوريات لا يصل للغاية التي يطمح لها بل تستفزه للغضب من فحوى الرسالة. فمحاولته الربط بين العبارات وألغازها ألجأه إلى هذه التساؤلات المنطقية. وصوت أبي أيوب يتحقق منه الغرض الحجاجي عند عرضه على منطق الأشياء فضلًا عن صوت الشاحج منشأ التساؤلات، ويبقى أن هذا الحجاج يدور في نطاق الشخصيتان دون غيرهما من الشخصيات الأخرى، وعليه يبقى محصورًا في عالمٍ داخلي بين أبي أيوب والشاحج، وإذا جاوزهما فإنه يتخطى الذات إلى زمن مناسبات هذه الإشارات التاريخية، كالتي كانت في اختلاف المذاهب الأربعة في مسألة شرب الخمر التي حرمتها كل المذاهب عدا الحنيفية التي استثنت الثمار الأخرى إذا لم تبلغ درجة الإسكار، وأن المقصور على الخمر هو عصير العنب فحسب. وهذه التساؤلات بالنهاية تأسس مزاوجة بين بُعدين أحدهما واصف له والآخر مقيّمٌ أو متلقٍّ يرصد ويعلق على تساؤلات الشخصيات وما يُعرض أثناء سردها من نسيج التساؤل وحوارات الذات وافتراضيات العالم الداخلي للشخصية، وما تحمله من تأملات في هذه الاستشهادات من الموروثات.

الفاختة والاستراحة الأولى:

ومع ملاحظتنا للتنويع في عبارات الاستشهاد السابق لأبي أيوب يقيم القارئ أصوات حوارٍ آخر متخيل كالذي يرد في سياق عرض حادثة الفاختة. فعندما زاد الاحتقان في خلاف التساؤلات بين الصاهل والشاحج سألوا حكمًا بينهما، فاختار الصاهل الفاختة وأنكر الشاحج عليه ذلك بدعوى المثل المعروف عن الفاختة بالكذب، ليقترح الجمل حكمًا بدلًا منها. فينتصر الصاهل للفاختة والشاحج لأبي أيوب، حتى إذا سمعت الحمامة الحوار بينهما ذهبت إلى البعير فتنقل خلاف ما سمعت وتعكس قولهما، لتوقع بين أبي أيوب والشاحج. ويعرض السارد لنا شكل المسألة والحادثة فيقول: «والفاختة في هذا كلِّه واقفةٌ تسمعُ مناجاةَ الصاهلِ وثناؤه عليها، وأقوالَ الشاحج ونقصَه منها، فتَرِفُّ عينُها للصاهلِ، تَغمِزُ عليه وهو لا يراها لأنه معصوب العينين» (المعري، 1984، ص206-207).

ولا يزيد السارد في عرض الفاختة غير هذا المشهد، ولعلّ استخدام السارد للصوت غير المعلن للشخصية فيه نزوعٌ إلى الحوارات الصامتة التي قد تستغرق التساؤلات المتلاحقة والممتدة بين الشخصيات المتعاقبة. ولنا أن نلمس هذا الصوت الصامت لشخصية الفاختة في الإشارة غير المنطوقة لحظة أن رفّتْ عينها للصاهل أو حينما غمزت له، وهي أفعالٌ لا يشارك فيها أحدٌ غيرها، ولذا تعمّد السارد أن يؤكد ذلك في كون الصاهل لم يرها. فالفاختة شخصية تتقوقع على نفسها الكاذبة والمغلقة، وهي إحدى اللحظات التي يودّ السارد للقارئ أن يشارك فعليًا في موقفها ويتخيله بما يُوهَم له من أمورٍ لم يرَ عرضها أو تساؤلات انسحبتْ في لحظة التقاء الشخصيات المتعددة في وقتٍ محدد وموقفٍ محدود. وعلى ذلك فإن الحوارات والتساؤلات تمتدّ بعد هذا المشهد بين توبيخ الشاحج لأبي أيوب واعتذار الجمل من فرط سوء فعله ساعةَ استعجاله بتصديق وشاية الحمامة وخدعها إياه. والسارد بعد مشهد الفاختة يأتي على ذكرها في لسان الشخصيات الأخرى حتى نفاد مشهد الجمل والشاحج كاملًا (المعري، 1984).

إن قلّة التساؤل في مشهد الفاختة قد يكون سببًا لزيادة النشاط العقلي لدى القارئ الذي يصحبه شيء من الريب من موقفها غير الأخلاقي الذي كان سببًا لهجوم الجمل على الشاحج. والحقّ أن من مدلول إيماءاتها غير المنطوقة أن صنعت جوًّا من المنافسة اللغوية في إطار كانت الغاية منه التميز بين الغدر والحيلة في نقاشٍ خاض غماره بطلا المشهد اللاحق لمشهد الفاختة، مبنيٌّ على نشاط من التساؤلات وأسرار صارتْ دلائلَ عند اكتشاف الخدعة.

الضبعة والاستراحة الثانية:

والسارد الفطن يجيد شروط الكتابة ويعلم حركة الثقافة ويجيد استخدام الأفكار عبر تنقلات التساؤل، وعبر أدوار الشخصيات وحواراتها المتعددة، بما يجعل الأصوات تتخطى الصوت الواحد إلى زوايا متباينة تعكس خطابات التساؤل طبيعة الشخصيات التي يعرضها طوال السرد. ويصنع السارد مسافة بين الشخصيات ذات التساؤلات الكثيرة من خلال شخصيات أخرى تدفع سأم السرد من القارئ وتشدّ انتباهه لموضع المغايرة والاختلاف. ويكون ذلك بالعرض الرشيق كما في شخصية الضبعة أم عامر التي مثّلت الاستراحة الثانية بين الشخصيات الرئيسة. فالفاختة كانت تمثل الاستراحة الأولى بعد الحوار والسرد الطويل بين شخصيتا الصاهل والشاحج، وهنا تكون الاستراحة الأخرى بعد السرد الطويل بين شخصيتا الشاحج وأبي أيوب. وتكمن أهمية استراحة أم عامر أنها تأتي بعد نتاج مشهدين طوال مشهد الصاهل والشاحج ومشهد الجمل والشاحج، ثم يُستأنف بعدهما مشهدان طويلان للثعلب مع الشاحج؛ ولذا كانت الاستراحة الثانية أوجب لدى السارد وأهم عنده لدى القارئ. ومن هنا كانت استراحة الفاختة لا تزيد على نصف الصفحة في حين تستغرق أم عامر في مشهدها أربع صفحات، فضلًا عن أن الفاختة لم يعرض السارد صوتَها جهرًا في حين سنرى عكس ذلك في حديث الضبعة بمشهدها القصير.

والضبعة تمثل الشخصية المتسائلة في ذاتها، وهي بهذا تصنع صنفًا آخر في طريقة التساؤلات المعروضة. فقد كانت حركة السرد في أغلب الرسالة تنتقل التساؤلات فيها بين طرفي نزاع، كلٌّ منهما يؤكد بُعدًا يمثل رأيًا يقصد إليه ويحاجج عنه. ونجد أم عامر تبحث عن كنهها في تساؤلات تطرحها أمام الشاحج، فتقول: «وفي نفسي سؤال كنت أريد أن أسأل عنه بعض العلماء، وقد سمعت مخاطبتك للجمل فدلتني على فهمك ومعرفتك، وقد عزمتُ أن أسألك مسترشدة... فتقول: لي ثلاثُ كُنَى متجانساتٌ في اللفظ: أم عامر وهي المشهورة، وأمُّ عُوَيْمِر، وأمُّ عمرو... فأخبرني أصلحك الله، أإياي عَنَى القائلُ بقوله:

تصدُّ الكأسَ عنا أمُّ عمرٍو ∴ وكان الكأسُ مَجراها اليمينا

فيعجبُ الشاحج من حمقها ويقول مستهزئًا: وهل عَنَى غيرَكِ؟ ... وكل ما تسمعينه في الشعر الغزل من أمّ عمرو وأم عامر، فإياك عَنَى به الشاعر، إذ ليس في الأرض بهيمةٌ أحسن منك، ولا سيما مشيتك... فتقول: الآن علمتُ صدقَكَ وتحامُلَ أبي أيوب عليكَ» (المعري، 1984، ص409-412). فشخصية الضبعة تمثُل بين يدينا مدفوعة بين الظن واليقين، وهو ما ألجأها للتساؤلات التي استدعتها مساحة الخلل والشك بين الظن واليقين في كُناها التي سألت عنها، وبين ما تستدعيه أم عامر من الشواهد ولا يحاول الشاحج أن ينفيه تظهر سذاجتها بأسلوب السخرية من التصديق والتكذيب. ومجال السارد هنا لا يقف عند باب المرونة السردية فحسب، بل يجيز لنفسه اللعب في صنعة الكلام واللغة بأسلوب الحيلة المضحكة. فهو يخرج من كنف الجدالات والتساؤلات وغموض العبارات التي تستوقف القارئ عند حدود القريب والبعيد، ومع ما يصنعه السارد من الاضطراب اللغوي والمعنوي في نصوص التساؤلات والمسائل فإنه يستريح في لحظات عند مشاهدَ عارضة، كالتي كان من الفاختة أول الأمر والذي صار هنا لدى أم عامر، التي ظهرت لدى شخوصٍ آخرين عدم معرفتها بأشياء كثيرة، وتلوح شخصيتها أمام نظرنا عديمةَ الخبرة، ومائلةً أمام نظرائها من الشخصيات الأخرى بدرجة أقل في المكانة والأهمية السردية والحوارية في ظل التساؤلات المعروضة على النص.

الثعلب ودور السارد المحايد:

وتقوم التساؤلات بدور السارد المحايد بين الشخصيات في طرق السرد المعلومة، فترتيب الزمن وتوظيف المفارقات وتغيير إيقاع السرد من حيث السرعة والبطء أو من حيث التواتر ضمن تساؤلات تترابط مع باقي المكونات مع سيطرة بعض الشخصيات وتنويع أصواتها، كلّ ذلك يشكّل النصّ

السردي (يقطين، 2012). والتساؤلات في هذا الموضع تضطلع بمهمتين إحداهما تقدم المعلومة والأخرى تنظّر لها. وفي الثانية تكون مهمّة السؤال الإفصاح عن رؤى الشخصية في سياقات تبدو فيها تساؤلاتها مشبّعة بأحكام مقوّمة يتصاعد منها حضور الشخصية إلى نوع من التعليق والشرح والتفصيل.

وفي ثنايا هذه الأسئلة نحفل بالارتباط العملي في التوافق بين الشخصيات، وتُشيَّدُ من تراكيب التساؤلات أفكارٌ عميقة، تستدل من الشعر القديم طابعًا تأويليًا غريبًا يظهر فيه مؤلف الرسالة أبو العلاء بمظهر الفيلسوف الذي يبتدع لغة جديدة، فيها بعض الانحرافات الممتعة لغويًا ومعنويًا. وهذا ما يبدو من دخول شخصية الثعلب لساحة الرسالة والقصة، عندما يرد ويكون دوره في مشهدين طوال جدًا. ومدار هذا التنظير يناقش فيه الثعلب أقوال النبي- صلى الله عليه وسلم- بالبركة في حديثه عن اللبن والشاة، ويناقش بيوت الأعراب وطرق بنائها ويوازن بينهم وأهل الحاضرة في السُّكْنَى والإقامة، «فما ظنُّكِ يا حَضَرِيةُ بأهل دارٍ يُحْمَلُ بيتهم على البعير ويُدلَجُ به في العِيرِ؟ ... فما ظنُّكَ بِعَرَبِي يسكنُ العِمادُ يشفق على بيتِ عَربيةٍ من تشعيث الوَتَدِ؟» (المعري، 1984، ص518، 521). فتتناسل الأصوات عنده وتأخذ حيزًا من السرد كبير، قائم على التساؤلات التي تُحاكم الأفعال والتجارب والممارسات، «ألم تعلم تلك الحَوَارياتُ أن رجالَهن الجالين إذا عقلوا بحلب- حرسها الله- يُضيفون الرَّوْذقّ إلى الخَضِيمةِ... وتلك هي الفضيلة العظيمة؟ ... فما يُرِدْنَ من ظعائنَ يَتبعْنَ البارقَ ويُكافِحْنَ الشارقَ ويحْدِجْنَ الأَيْنُقَ بنفوسهن ويَعدُدنَ النظرَ إلى السرابِ مُغنِيًا في الباديةِ عن الشراب» (المعري، 1984، ص526).

ويحرّك السارد خطابات التساؤلات بانتقالاتها الموضوعية وتنوعاتها المعرفية في إطار التنظير ثم التطبيق وهو يخوض في أعماق النشاط اللغوي لدى العرب، يبدي فيها السارد شجاعة الرؤية في طرح المسائل، «ألا ترى أنكَ إذا جمعتَ كوثرًا أو صَغَّرتَه قُلْتَ: كُوَيْثِرٌ وكواثِرُ، فكانت الواو وهي زائدة، ثابتةً ثباتَ عيْنِ جعفرٍ وما كان مِثلَها من الأصليَّاتِ؟» (المعري، 1984، ص529-530). وتتحقق قيمة المساءلة في الانسياب التلقائي الذي يسمح بتكرار حشد الأسئلة والانتقال بها من البسيط إلى المركّب. والحقّ أن أبي العلاء قد تستبد به الفكرة أحيانًا فيستغرق فيها فلسفيًا، ويعنى بها في جدل يخالف فكرة الحرية في القراءة والفهم؛ لتسري تساؤلات في سرد الرسالة تظل إجاباتها معلقة دون يقين. واضطرار السارد في هذا الموضع يُقصد منه أن يضع المثقف أمام الشك وحالاته الموجبة له، لأنهم هم الفئة التي تعنى بجوهر الكلام ثم تتحرر منه في مرانةٍ ذهنية لا تسلّم لظاهر النص إلا بقدر ما تنهج طريقًا لإلغائه أو إنكاره، «والعامةُ إذا أنكروا ما يأتي به الرجل قالوا: يجب أن يكونَ على رأسه صليبٌ. ومِلَّةُ هذا الرجلِ تقتضي أن يكون كَيُّه مُصَلَّبًا. وما خيرُ شيخٍ قد كُوِيَ رأسه ذاتَ المِرَار؟» (المعري، 1984، ص561). والسارد في هذا يحيا على الفكر الفلسفي في قوام الاختلاط والوهم، ليُطلَّ من ستار الذكاء لا الإشارات الظاهرة.

وأحسن ما يطمئن له السارد أن يجعل الختام في التساؤلات بلسان الثعلب على طبع قصائد المدح، ليظهر في شكل فنان مستغرق في الفن ومجادل مستغرق في الجدل في آنٍ معًا. وهو يصوغ ختام تساؤلاته إلى معنى ومبدأ يخضعهما للتداول والنقاش، تؤول آثاره المتفاوتة في سؤالاته بنهاية المطاف إلى الثناء على الأمير عزيز الدولة، وفيه دعاء مستمر يشبه ختام قصائد المدح التي تنتهي بالدعاء عند خطاب الملوك والأمراء مما يشي بشاعرية السارد الخفية. وثعالة يطرح علينا هذا السؤال بإلحاح، وطرق متعددة، ما بين مدح ودفاع وتأييد للأمير، «وتحدثت العامة أن سبب الفساد بين السيد عزيز الدولة- أعزّ الله نصره- وبين الطاغية، أنه سَامَه أن يجتمعَ معه. والمثل السائر: وهل يجتمعُ السيفانِ ويحكَ في غِمْدِ؟ وكيف يطمعُ مثلُه في هذه المنزلة؟ ... ومن أينَ يوجَدُ هُمَامٌ رَبِيبٌ يجري مجرى هذا السلطان- أعزَّ الله نصره، وإنه لغريبُ الشِّيم بديعُ المكارِم؟ ... ولو رأى محمدُ بن يزيدَ المُبَرِّد السيدَ عزيز الدولة- أعزَّ الله نصره- وعَمَلَه بالسيفين، لَعَلِمَ أن العَطْفَ على عامِلَينِ جائِزٌ في قولك: زيدٌ في الدارِ والحُجْرَةِ عمرو؛ ولم يلحقْه شَكٌّ في ذلك. وحَدَّث هذا الرجلُ العقيليُّ أيضًا، أنه رآه بحلبَ- حرسها الله- وهو ينظر في العروض للخليل. وهذه قريبةٌ من الأولى في العَجبِ: الملوكُ قد شُغِلُوا عن الفروض فما بالُ النظر في العَروض؟!» (المعري، 1984، ص685، 703، 706). والناظر في هذا الختام لتساؤلات الثعلب لا يدري أهو مدحٌ على اليقين أو هو استهزاءٌ من طرفٍ خفي يشحذ فيه ذهن المتلقي إلى التركيز في لغة السارد العابثة والذكية، وكأنه ألف الطابع الفلسفي الذي حرك فيه شيئًا من تساؤلات ثعالة.

السارد الحقيقي وختام التساؤلات:

ولا يطلّ السارد علينا بعد تعدد هذه الأصوات والتساؤلات إلا في ختام الرسالة بعد أن مهّد في أول الرسالة عند عرض مسألته على الأمير عزيز الدولة، ثم انسحب بلطف في مقدمته ليترك الشخصيات تتنازع التساؤلات من بعده، فيقول بصفته الحقيقية وبعد أن أعطى شخصياته التي كان يحركها طوال الرسالة أدوارها: «قد أسهبتُ والمُسهبُ كحاطب الليل، ربما أخذَ بنتَ طَبَقٍ، فجعلها في بعض الزَبَقِ. هذا إذا كان أبْصَرَ من غُرَابٍ، فكيف إذا لم يُبْصِرْ أَدنى الآراب؟» **(المعري، 1984، ص708)**. ونلحظ أن السارد نفسه يُنهي مفتتح ختام رسالته بالتساؤل أيضًا، وهي غاية يعمد منها إخبارَ الأميرِ المقصود بالرسالة أنَّ أبا العلاء المعري هو المتحكِّم طول الرسالة.

الخاتمـة

لقد اتضح من خلال الدرس أن البحث في جزئياته المتنوعة وأفكاره المتعددة قد خلص إلى النتائج التي يوجز الباحث أهمها على النحو التالي:

- إن الرسالة لا تكاد تخلو من صيغ التساؤل والاستفهام التي تحمل في معانيها دلالات ومقاربات تجعل القارئ يسير معها في حركة مستمرة ومتتابعة تربطه بالشخصيات على طول الرسالة. وقد تشد المتلقي أحيانًا تعقيدات ممتعة في رمزيتها وألغازها وتورياتها.

- تكشف التساؤلات عن قناعات وفهم كل شخصية وتصوراتها اليقينية، والتي تأتي بتفسيرات تثير فضول القارئ وإعجابه بطرق الربط بين الموروثات وغاية الشخصية.

- مثّل التنازع النصي في تساؤلات الصاهل والشاحج في المشهد الأول معالم هذه القصة وبداية تكوين شخوصها في أسئلة تُطرح عن الشخصية وتبحث عن ذاتها. وهي تساؤلات تبحث عن كُنه الشاحج بطل الحكاية، وتبيّن مبتغاه، وتشرح حجم معاناة البطل من أجل إيصال صوته «رسالته» إلى الأمير. وتبقى رمزيتها معبّرة عن حال السارد.

- تعبّر التساؤلات في جدالاتها طبيعة التميز الطبقي عند فئة من الناس تميّزوا بالصّلف واحتقار الآخرين، تشكّلتْ آراؤهم من أعراف وأخبار السالفين.

- يصنع الجدال والحجاج مقاصد واسعة يتشكّل فيها على هيئة ثنائيات تساؤلية تمثل شكوكًا بين طرفين، وهي تعبّر عن حالات المراوحة بين طرفي النزاع في المعرفة وعدم المعرفة.

- يتأسس من مفارقة التساؤلات لدى بعض الشخصيات أن هناك أكثر من مستوى ثقافي لدى القارئ عمد السارد إلى استجلائها. وتساؤلات هذا الصنف ترتبط ببُعد حواري وأبعادٍ تفسيرية يتحقق منها الغرض الحجاجي عند عرضها على منطق الأشياء. وقد تعيي مفارقاتها فهم إحدى الشخصيات المتسائلة لإلغازها وتورياتها، ممَّا ينسحب ذلك على القارئ أيضًا.

- يعمد السارد إلى استخدام الشخصية الثانوية لتدور في مشهد مقتضب جدًّا قد لا يزيد عن الصفحة، لتمثل استراحةً أولى بعد عناء مشهد سردي طويل في تساؤلاته. على أن استخدام السارد لهذه الشخصية فيه نزوع إلى الصوت الصامت، والذي نتلمسه في إشاراتٍ وحركاتٍ غير منطوقة لأفعالٍ لا يشاركها فيها أحد، وتمتد روح تساؤلاتها إلى الشخصيات التي تعقبها.

- يلجأ السارد إلى شخصية ثانوية أخرى تمثل استراحةً أخرى بعد امتداد مشهدٍ طويل وَلِيَ الاستراحة الأولى ومشهدين طوال منذ بدء الرسالة. وفي هذه الاستراحة يصنع السارد مسافة بين الشخصيات ذات التساؤلات الكثيرة من خلال شخصيات أخرى تدفع سأم السرد على القارئ وتشد انتباهه لموضع المغايرة والاختلاف. ويمتعنا السارد من خلال تساؤلاتها بالضحك بعيدًا عن الجدالات العصية والعبارات الغامضة والاضطرابات اللغوية والمعنوية التي انتهجها مع الشخصيات الرئيسة. وتختلف هذه الاستراحة عن الاستراحة الأولى بطولها الذي يصل إلى أربع صفحات، لغايةٍ يعمد منها السارد إلى تهيئة القارئ إلى مشهدين طوال لاحقين لها.

- تقوم التساؤلات بدور السارد المحايد في شخصية ثعالة، وهي تضطلع بمهمتين أساسيتين: تقديم المعلومة والتنظير لها. وفيها يظهر السارد الحقيقي خفيةً بمظهر الفيلسوف الذي تستبدّ به الفكرة فيستغرق بها فلسفيًّا، ويقصدُ فيها القارئَ المثقف ومرانته الذهنية.

- يقوم أبو العلاء بإظهار نفسه حقيقةً في ختام الرسالة بعد أن هيَّأ القول في مشهدين طوال لشخصية السارد المحايد التي تكفل بها الثعلب عن طريق تبني الطابع الفلسفي واللغة العابثة الذكية، ليؤكّد حضوره بأنه المتحكم طول الرسالة..

المصادروالمراجع

القرآن الكريم

الحسني، س. (2009). *دراسات في الحجاج: قراءة لنصوص مختارة من الأدب العربي القديم*. (ط1). إربد: عالم الكتب الحديث.

خطابي، م. (2006). *لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب*. (ط2). بيروت: المركز الثقافي العربي.

عقيلة، أ. (2020). *بناء الشخصية في "رسالة الصاهل والشاحج" لأبي العلاء المعري*. *مجلة البحوث العلمية، جامعة أفريقيا للعلوم الإنسانية والتطبيقية*، 5(10)، 36-52.

عيسى، ح.، علي، ف.، ونمر، م. (2020) *الأساليب السردية في رسالة الصاهل والشاحج*. *مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، جامعة تشرين*، 42(3)، 77-94.

المعري. أ. (1984). *رسالة الصاهل والشاحج*. (ط2). القاهرة: دار المعارف.

ميوميك، د. (1982). *المفارقة*. بغداد: دار الرشيد للنشر.

يقطين، س. (2012). *السرديات والتحليل السردي: الشكل والدلالة*. (ط1). الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي

References

The Holy Quran

Al-Hasani, S. (2009). *Studies in Argumentation: A Reading of Selected Texts from Classical Arabic Literature*. (1). Irbid: Modern Book World.

Aqila, a. (2020). Building the character in the 'message of the trap and the scarf' by Abu Al -Ala Al -Maari. *Al -Bahout Scientific Magazine, Africa University of Humanities and Applied*, 5(10), 52-36.

Issa, H., Ali, F., & Nimr, M. (2020). Narrative methods in the message of the trap and the charger. *Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies. October University*, 3(42), 94-77.

Khattabi, M. (2006). *Linguistics of the Text: An Introduction to the Coherence of Discourse*. (2nd ed.). Beirut: The Arab Cultural Center.

Al-Ma'arri, A. (1984). *The Message of Al-Sahil Wa Al-Shahij*. (2nd ed.). Cairo: Dar al-Maarif.

Miyomik, D. (1982). *Paradox*. Baghdad: Dar Rashid Publishing.

Yaqtin, S. (2012). *Narratives and Narrative Analysis: Form and Meaning*. (1st ed.). Casablanca: The Arab Cultural Center.